مجلة سوسيولوجيون ISSN: 2716-9170
المجلد: الأول العدد: 02 السنة: 2020

الوضع الإثني والخصوصيات الإثنوغرافية بالواحات المغربية واحة فركلة نموذجا

Ethnic status and the ethnographic characteristics in the Moroccan oasis

An oasis of Ferka as a model

سمير الساعيدي، جامعة ابن طفيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب، d.saidisamir@gmail.com

ملخص:

تتميز التعددية الإثنية في بالواحات الواقعة بالجنوب الشرقي المغربي (جهة درعة تافيلالت) بالانغلاق وضعف التواصل بين مختلف مكوناتها بما ينعكس بشكل مباشر وغير مباشر على العلاقات التفاعلية بين الناس أفرادا وجماعات، حيث تسود علاقات اجتماعية ذات طابع "حَذِر"، وزواج منغلق يتم بين أعضاء الجماعة الإثنية الواحدة، وصراعات مُضمرة وأخرى علنية على الأراضي الجماعية، وتنافس بصبغة إثنية في فترات الانتخابات، ثم ممارسات حزبية عقيمة، وخلل عميق في العلاقات الاجتماعية العامة والخاصة، والنتيجة من كل ذلك، فشل ذريع بالنهوض بوضعية الإنسان والمجال الواحي.

الكلمات المفتاحية: درعة تافيلالت، الجماعات الإثنية، إقبْليُن (الحراطين)، واحة فركلة، التراتبية الاجتماعية.

Abstract:

Introversion and lack of communication is what characterizes the different ethnic groups in the southeast oases of Morocco (Draa Tafilalet region). It actually has a direct and indirect influance on social relationships. Typically, the Ferkla oasis represents the ethnic plight in the region. In this area social relationships looks to be cautious, marriage is done between the members of the same ethnic group, implicite and explicite conflicts over common lands, electoral competitions are based on ethnicity, unproductive political practices and a deep flaw in social public and private relationships. The result is a big failure in developing the local community and people.

Keywords: Draa Tafilalet, Ethnic groups, the Iqbliyn (the Haratin), Ferkla oasis, social hierarchy.

مقدمة:

تعتبر منطقة الجنوب الشرقي للمغرب مجالا حاضنا لأنظمة واحية تشكلت منذ تاريخ عريق بمحاذاة الأنهار والوديان وقرب عيون الماء، واستقطبت عناصر بشرية متعددة الجذور والانتماءات الإثنية والقبلية فتكونت بينها وشائج وعلائق وانتظمت على شكل هرم يقوم على التراتب والطبقية، وشكلت ملكية الارض أساس كل تراتب اجتماعي موروث ومحور كل تجاذب إثني متأجج بالمنطقة. وتحولت فترات الانتخابات الجماعية والبرلمانية إلى لحظة تتقوى فيها الانقسامات الإثنية والقبلية. ممّا أضرّ بالتنمية المحلية وشلّ تدبير المجال المشترك.

وقد افترضنا في دراستنا ما يلي:

- قام المجتمع بالواحات المغربية على التراتب والطبقية، والعلاقات بين هذه الطبقات محدودة ومقيدة بأعراف،
- يعد التنوع الإثني بالواحات المغربية أحد الأسباب الدينامية في عرقلة تنمية هذه المجالات بسبب ما ينطوي عليه من تعصب، وتباعد، وصراع، وتنميط بين الافراد والجماعات بالمنطقة محل الدراسة.

وتقوم هذه الدراسة منهجيا على تأويل معطيات بحث ميداني غير منشور حول العلاقات الإثنية وتدبير المجال الواحي، وفيه اعتمدت الملاحظات التحليلية للظواهر المعايشة مع إجراء أربعين مقابلة علمية على عينة قصدية استهدفت بالأساس كبار السّن ممن خبروا تاريخ المنطقة محل الدراسة، بالإضافة إلى الفئة المتعلمة التي ضمت أساتذة وفاعلين جمعويين ونخب محلية. وقد راعينا في اختيار المستجوبين عبر المقابلات تنويع انتماءاتهم الإثنية لذلك ضمت عشرون فردًا من إثنية إقْبْلِيِيْنْ (السُّمْر) منهم خمس إناث، وعشرون مستجوبا من إثنيات أخرى "بيضاء" يتوزعون على فئات: الشرفاء (خمس مقابلات)، أيت مرغاد (سبع مقابلات منها ثلاث إناث)، إيكَرامْن (خمس مقابلات)، آيت عطا (ثلاث مقابلات).

وتروم هذه الدراسة تقديم صورة عامة للوضع الإثني بالجنوب الشرقي المغربي (جهة درعة تافيلالت) من خلال استعراض أهم مكوناته الإثنية، ومحاولة قياس مدى تأثير الانتماءات المختلفة للناس في تدبير مجالهم المشترك.

1) معطيات حول مجال البحث

تنتمي جهة درعة تافيلالت إلى منطقة الجنوب الشرقي المغربي وتعتبر ثاني أكبر جهة بالمغرب من حيث المساحة بعد جهة العيون الساقية الحمراء، حيث تبلغ مساحتها 88.863 كلمترا مربعًا، ويبلغ عدد سكانها 1.635.008 نسمة بحسب إحصاء 2014م. وتتكون من خمسة أقاليم هي: الرشيدية، وورزازات،

وميدلت، وتنغير، وزاكورة. وتعتبر مدينة الرشيدية مركزا وعاصمة للجهة. monographie Générale, (2015, p6). ويحتل النظام الواحي بها حوالي 88 %، ونذكر من أسماء أهم واحاتها: زيز، وغريس، وفركلة، وتودغى، ودرعة، وأكدز، ودادس، وتافيلالت، وتتمتع هذه الواحات ببنية تضاريسية متنوعة، وبمناخ شبه صحراوي يكون قاحلا وجافا في أغلب فترات السنة. كما أن العناصر المشتركة بين هذه الواحات قوية لاسيما على مستوى تركيبتها الإثنية والثقافية، لذلك سيقتصر تحليلنا على نموذج واحة فركلة.

تعتبر واحة فركلة من أهم الواحات بجهة درعة تافيلالت، وتمتاز طبيعيا وبشريا بعدة مقومات؛ فبالنسبة للمقوم البشري، تحتضن هذه الواحة عدة جماعات إثنية وقبلية ذات انحدارات إثنية مختلفة وذات تقاليد وعادات متنوعة وراسخة، الأمر الذي يجعلها فضاء تلاقح إثني وثقافي، ويُقدر مجموع سكانها بحوالي 43980 نسمة (المندوبية السامية للتخطيط،2014)، موزعة على الشكل الآتي:

توزيع الساكنة حسب المجالات الإدارية الكبرى بواحة فركلة

المجالات الادارية	عدد السكان	عدد الذكور	عدد الاناث
فركلة العليا	22722	11074	11648
فركلة السفلى	12328	5925	6403
تنجداد (مركز فركلة)	8930	4354	4576

وتوجد البنية التحتية بفركلة في وضع متدهور جدا، ورغم وجود ما يربو عن 180 جمعية (قيادة تنجداد (وثائق إدارية)، 2017) أي بمعدل جمعية لكل 244 فرد، إلا أن أنشطتها محدودة، وتضم فركلة العليا حوالي 12 تعاونية وكلها فلاحية باستثناء واحدة اهتمت بقطاع النسيج، أما فركلة السفلى فتضم 8 تعاونيات كلها فلاحية (قيادة تنجداد (وثائق إدارية)، 2017)، بينما البنية التحتية الصحية أكثر تأزما، ويضطر المرضى إلى زيارة مستشفى مولاي علي الشريف بمدينة الرشيدية الذي يبعد بحوالي 80 كلم طلبا للعلاج (ملاحظات مباشرة، 2019).

وأما فرص الشغل فنادرة، كما تشكو الواحة الخصاص في مراكز التكوين المهني مما جعلها منطقة "طرد"، بينما السياحة لا تعدو كونها طرقية عابرة، إذ لم يُطوّر الفركليون مقومات مجالهم لاستقطاب السيّاح وترويج التجارة المحلية، لأن بنية العمران التقليدي في اندثار مستمر، والصناعة التقليدية مهددة بالانقراض، كما اختفت بعض الحرف التقليدية مثل البناء باستخدام تقنية "الطابية"/ التراب المدكوك، وانقرضت بعض الصنائع القديمة بفعل المنافسة الشديدة للمنتوجات العصرية التي غزت الأسواق المحلية(ملاحظات مباشرة، 2018).

ورغم وجود ثلاثة وديان موسمية تخترق الواحة وهي: واد فركلة في الوسط وواد تنكَرْفَة في الشمال وواد السّات في الجنوب، إلا أن فركلة تشكو الجفاف وضعف التساقطات المطرية وعدم انتظامها، مما أدى إلى تراجع المساحات الخضراء فتراجعت بنية النخيل واندثرت بشكل كبير وفقدت الواحة الكثير من جاذبيتها الايكولوجية (ملاحظات مباشرة، 2018).

2) أهم إثنيات المنطقة

تتنازع المجال الواحي بدرعة تافيلالت عموما وبفركلة تحديدا عدة جماعات إثنية يستند وجودها إلى إحساس الأفراد بالعضوية والانتماء إلى جماعة تمتلك هوية خاصة بها، و"يمكن لزائر سكان أية واحة بالمنطقة أن يميز فيها بين ستة أصناف من الفئات الإجتماعية وهي؛ الشرفاء، المرابطون، والعوام، والحراطين، والعبيد، واليهود"(Jaques Meunié, 1958, p238-269).

وفي واحة فركلة يمكن أن نميز بين فئات مالكة وهي الشرفاء والمرابطون وفئة المقاتلين حَمَلَةُ السِّلاح (أيت عطا وأيت مرغاد) ثم الأحرار (إيمازيغن)، وثمة عناصر بشرية أخرى معروفة بمسميات "آيت باعلي أوحماد – وإسمخان أو العبيد وأعدادهم قليلة قياسا بالعناصر الأخرى (ملاحظات مباشرة، 2018)، أما إقبْلِيِيْنْ فهم الفئة الدنيا في قطاع المجتمع (الفئات التابعة أو الخاضعة) لكنهم يمثلون جماعة إثنية نافذة من حيث العدد، لذلك لعبوا دورا كبيرا في إحداث دينامية اجتماعية واقتصادية كبيرة بالمنطقة (ملاحظات مباشرة، 2018).

1-2) **الشرفاء والمرابطون: أهل البركة حملة الكتاب**

أ) الشرفاء

ينتشر الشرفاء في المغرب انتشارا كبيرا، ويمثلون عناصر لها تأثير كبير في الحياة السياسية والاجتماعية، ولهم امتيازات عديدة ويتمتعون بحصانة خاصة، ويُدعون عادة "بمولاي فُلانْ". والشرفاء - حسب روس.إ.دان- "هم الأفراد الذين يعتبرهم المجتمع من نسل الرسول محمد (ص) عن طريق مولاي ادريس الأول في فاس أو مولاي علي الشريف في تافيلالت، فالأول هو الذي أسس الدولة العربية الاولى في المغرب في القرن الثامن الميلادي، والثاني هو الجد الأكبر للدولة العلوية التي تولت الحكم في المغرب في القرن السابع عشر." (روس.إ. دان، 2006، ص 45) غير أن الانتماء إلى نسل الرسول قد يكون وهميا وادعاء باطلا، حيث انتشرت بشكل عام بالمغرب ظاهرة ادعاء الصلاح منذ القرن السادس عشر واستمرت بعد ذلك فَ"رسّخ الصلاح جذوره في عمق بنيات المجتمع المغربي لدرجة أصبحت فيها جغرافية المغرب جغرافية قدسية" (الزاهي، ص 5) ونتيجة لما يحظى به "أهل البركة حملة الكتاب" من امتيازات مادية ومعنوية فكثير من الناس في تاريخ المغرب ادعوا أنهم شرفاء، لذلك يصعب حسب روس.إ. دان "تقديم وصف دقيق للخصائص الاجتماعية للشرفاء والمرابطين، فكثير من الأفراد وأحيانا القبائل كلها،

تقدم نفسها على أنها شريفة ودون تقديم دليل نسَبي قاطع على ذلك، ولذلك فإن سلوكهم وحده هو الذي يمكن أن يحدد فيما إذا كان ادعاؤهم مقبولا أم لا"(روس.إ. دان، 2006، ص 47).

ويعود أصل شرفاء واحة فركلة - بحسب المتخيل الاجتماعي السائد- إلى الشريف مولاي عبد العزيز وتوجد زاويته بمنطقة أسْريرْ "فقد حصل على بقعة أرض لبناء زاويته بفركلة سنة 1062هـ/1650م (اخروش،2002، ص 163)، حيث اعتقد أهل أسْريرْ وقتها بأن مولاي عبد العزيز ينتسب إلى آل بيت الرسول (ص) ولذلك آمنوا ببركته على جلب الخير ودفع الضرر عن البلد، كما آمنوا بقدرته على التوسط بينهم وبين الله. وقد حصلت زاويته على موارد هامة نقدية وعينية مما مكنها من لعب أدوار ووظائف كثيرة أهمها استتباب الأمن وتهدئة الاوضاع الاجتماعية العامة بالمنطقة (مقابلات ميدانية (رقم: 1، 3، 8، 19)، 2018).

ب) المرابطون

وأما المرابطون فـ"ينحدرون من رجال معروفين بالورع والتقوى. عُرفوا بصفة الأولياء الصالحين" ويدعون عادة بـ "سِّي" أو "سيدي" فلان ويُرجعون بنسبهم إلى "أولاد سيدي فلان" ويطلق عليهم بواحة فركلة اسم "إيكَرامْنْ" ومفردها "أكَرّام" وتعني الرجل الصالح الورع التقيّ، وينسب إيكَرامن بفركلة إلى الولي الصالح سيدي العربي بن بابا الهواري الذي يهتم أبناؤه بضريحه ويستقبلون هدايا الناس النقدية والعينية. ولا تزال بعض القبائل إلى يومنا هذا تزور بشكل دوري/ سنوي أو نصف سنوي مقر الزاوية الكائن بقصر آيت معمر القديم الذي يدعى كذلك قصر الزاوية. واقتصرت وظيفة هذه الفئة في الماضي على التحكيم والتوسط وتحفيظ القرآن الكريم لذلك حظوا بتقدير الجميع. (مقابلات ميدانية (رقم: 33، 23)، 2018).

ويحتل الشرفاء والمرابطون عموما مكانة اعتبارية في المجتمع وقد تكيفوا بسرعة مع المناخ الثقافي بواحة فركلة بسبب ما حظوا به من توقير واحترام، حيث منح الشرفاء أراضٍ ليستقروا بها بمنطقتي أسْرير وتَايرزَة، ومُنح المرابطون أراضٍ بمنطقة تدعى آيتْ معْمَّرْ، وكانت هناك اعتقادات راسخة لدى أهالي الواحات قديما بأن البركة لا يمنحها إلا "الشرفاء" و"المرابطون" لذلك حظي هذان العنصران بقيمة اجتماعية كبرى ويتقرب المجتمع إليهما بالهدايا والعطايا والهبات، فالتقرب من صاحب البركة قد يكون بحسب متخيل أهالي المنطقة سببا في حصولها.

2-2) جماعات المقاتلين الرحل حملة السلاح

أ) آيت عطا وآيت مرغاد

ينحدر آيت عطا من قبائل صنهاجة الصحراء، كانوا يعيشون على الترحال بجبل صاغرو والأطلس الكبير الشرقي، وكانت لهم علاقات تبادل حيوية مع المستقرين بالواحات المجاورة نظرا لتكامل أنماط

عيشهم (امهدان، الجزء3، ص 133)، وبنو عطّا قيل بأنهم من أصل عربي ثم تبربروا، و"قد طُبعوا على إكرام الضيف كما طبعوا على الظلم، فكم من قصر لجيرانهم احتلوه فسكنوه، وهم قبيلة كبيرة من أقصى جبال ملوية". (السوسي المختار، الجزء 16، ص 272).

وينتمي معظم أيت عطا الصحراء حسب جورج سبيلمان إلى "العرق الثاني والثالث من برابرة صنهاجة، ويدعون أنفسهم بكل اعتزاز "إيمازيغن" (الرجال الأحرار) ويضمون بعض العناصر من عرب معقل المتبربرة حاليا. ومنهم من ينحدر من زنوج السودان الذين وفدوا إلى المغرب من عهد المرابطين أو الحراطين المقبولين في صفوف إيمازيغن، وقد ينحدر البعض الآخر من قبائل يهودية قديمة أسلمت" (سبيلمان،2011، ص 45)، وبهذا التوصيف الذي قدمه سبيلمان فإن أيت عطا -بعد ضمهم لكل هذه العناصر- لا يشكلون إثنية قائمة الذات بل خليطا من هؤلاء وأولئك. إلا أنهم رغم ذلك يعتقدون بأنهم ينتسبون إلى الجد المؤسس دادا عطا الذي يعتبر "صالحا من أقارب الشريف الإدريسي مولاي عبد الله بن حساين أو من تلامذته، وقد نجح في أن يضم تحت كنفه خلال القرن السادس عشر الميلادي قبائل بربرية رحلية ذات مصالح وحاجيات مشتركة" (سبيلمان،2011، ص 45).

وقد كتب بوميي Beaumier سنة 1847 بأنه حتى عهد قريب كان لآيت عطا شعر طويل كما هو الشأن اليوم لدى سكان الصحراء الغربية، وهذه إشارة منه إلى أن لهم أصلا صحراويا أما روس.إ. دان فقد أشار إلى عددهم "الذي يفوق 50000 نسمة في القرن التاسع عشر مما جعلهم من أكبر القبائل في المغرب. بحيث شملت أراضيها مجمل حزام شبه الصحراء وأجزاء من الأطلس الكبير الجنوبي من حمادة كَير في الشرق إلى وادي درعة في المغرب. وتحتل كل من أيت "خباش" وأيت أُمْنَاصْف، وهما المتفرعتان عن أيت عطا، المراعي المحيطة بحوض وادي زيز السفلى". (روس.إ.دان، 2006، ص 38).

ومهما يكن من أمر أصلهم فآيت عطا لا يشكلون قبيلة منسجمة من حيث انتماءات أعضائها بل خليطا تكوّن من أجل الغزو والتوسع، والظاهر أن عامل الاختلاط هذا كان أحد أهم أسباب اعتمال الضعف في كيان هذه القبيلة، ويقول سبيلمان في هذا الصدد: "إن لأيت عطا اعتزازا بعرقهم، وإذا كانوا في البداية قد قبلوا عناصر مختلفة بهدف الكثرة العددية، فإنهم منذ أن تحقق هذا الهدف يبدو أنهم أدركوا الخطر الذي يمثله الاختلاط الدموي الكبير" (سبيلمان،2011، ص 57).

ب) آيت مرغاد

يعتبر آيت مرغاد الذين قال المختار السوسي في حقهم "وأما بنو مرغاد فلهم ذكر حسن ومعروفون بالخير والشجاعة لا يألفون أن يخرجوا عن الأمراء ويحتكمون إلى الشريعة الاسلامية ضد أيت عطا" قبيلة أمازيغية اعتمدت حياتها على الترحال قبل أن يستقر بأعضائها الحال في مناطق مثل: فَرْكْلَة وغْرِيسْ بقوة السلاح مما مكّنها من امتلاك الأراضي، وتنتمي هذه القبيلة إلى حلف يافلمان الذي

يعني "الشعب الساعي نحو السلم" (روس.إ.دان، 2006، ص 82)، وتحتل مجموعة من قصور واحة فركلة أهمها: الخربات، السّات، وتُغَاشْ، إيزِيلْفْ وكَرْدْمِيتْ وغيرها (ملاحظات مباشرة، 2018).

وقد أورد الباحث بن محمد القسطاني في كتابه الواحات المغربية قبل الاستعمار؛ أسطورة تربط مرغاد بدادا عطا، وهي رواية يرفضها بعض المخبرين الذين ينفون وجود "دادا مرغاد" أصلا وأخُوَّته مع دادا عطا. وسبب الصراع بين أيت عطا وأيت مرغاد كما تقول الرواية: أن أحد العطاويين طلب من إحدى نسوة مرغاد سمنا، لدهن جلد النعل "تامسّيلْتْ باللغة الأمازيغية"، فرفضت فقام بصفعها. وسمي أيْتْ مْرغَاد "أيت تمسيلت". ثار المرغاديون على العطاويون وانتشر العطاويون لجهة الغرب وانتشر المرغاديون لجهة الشرق، وانقسمت صنهاجة كلها والقبائل العربية المجاورة لها إلى حلفي "أيت يافلمان، وأيت عطا" فساند أيت مرغاد كل من أيت إزدك وزايان، واشقيرن وإخاويين وكْروان Grouan وأيت يحيى.. وساند أيت عطا قبائل بني مطير وبني كَيلد ومكون وإلياس وسدرات وذوي منيع، وانقسم زمور إلى قسمين، قسم الأمازيغ ليافلمان والعرب لعطا (القسطاني،2005 ص 143).

والواقع أنه رغم العلاقات التاريخية التي يطبعها التوتر والعنف بين آيت عطا وآيت مرغاد إلا أن الوضع صار هادئا بينهما في الوقت الراهن، وثمة جهود تبذل من طرف أفراد وتنظيمات مدنية (جمعيات) لتذويب الصراعات واحتواء الرواسب الثقافية القديمة التي تعرقل الجهود في تحقيق التواصل بين القبيلتين، ومن بين المؤشرات التي توضح تحسن وضع العلاقات بينهما وجود حالات للزواج المختلط بعدما كان في الماضي خطا أحمر يصعب تجاوزه. لكن، إذا كان من الممكن تصور "تحسن" العلاقات فيما بين الفئات السائدة، إلا أن الوضع لا يزال بعيدا بينها وبين الفئات التابعة.

3-2) الجماعة الإثنية التابعة- الحراطين/ إقبليين

مازال أصل الحراطين موضع نقاش؛ ف"البعض يعتقد أنهم من الناس الذين دخلوا إلى المنطقة قديما في العصور الحجرية. والبعض الآخر يُرجع أصلهم إلى عبيد غرب إفريقيا الذين تزاوجوا مع السكان العرب والأمازيغ(Gabriel Camps, 1970, p 35-45) ويتميز معظم الحراطين أو إقْبْلِيِيْنْ ببشرة سوداء وملامح زنجية وبعضهم ببشرة برونزية متفتحة، و"هم من يتحملون معظم العمل اليدوي في الواحات، ولهم وضعية اجتماعية دنيا في نظر الطبقات الثلاث (الشرفاء، المرابطون والأحرار)" (روس.إ.دان، 2006، ص 47).

وأصل لفظة "حراطين" اختلف في شأنها فهناك من يربطها بالجدر "حرث"، فالحراطين أو الحراثين بناء على هذا التصور هم المباشرون لأعمال الزرع والفلح، لكن بفعل تغير الأحوال وتبدل اللسان مع مرور الزمان؛ استبدلت الثاء طاء نظرا لثقل الأولى فأصبح "الحرث" "حرطا" والحراثين حراطينا. ونجد تصورا آخر يربط (الحراطين) بالوضعية الاجتماعية للفئة التي تندرج فيه، فهو مشتق

من "حرّ ثانٍ" أو الحر من الدرجة الثانية. ليصبح بذلك الحراطين أحرارا ومواطنين ثانويين (الديالمي،2009).

وعلى الرغم من صعوبة القبض على الأصل الصحيح للفظة "حرطاني"، فإن بعض الباحثين حاول تحديد شخصية "الحرطاني" من خلال أوصاف وخصائص جسدية واجتماعية ونفسية تميزه؛ كإبراهيم حركات الذي يرى بأن "الحراطين" هم فئة متميزة ببشرتهم البرونزية وأكفهم البارزة من الداخل وبدقة تقاسيمهم، ويمتازون بروح العمل والمهارة في تزيين الحدائق وفن الغراسة، وتلاحظ فيهم طبيعة الصدق والصراحة والقناعة، وهي مجموعة من الفضائل التي يندر أن تتوفر في غيرهم من العناصر، وقد يكونوا منحدرين - بحسب رأي بعض العلماء - من الجنس الأثيوبي أو جماعة الجيتول الذين استقروا بالصحراء منذ آلاف عديدة من السنين(حركات، 2000، ص 23).

وثمة رأيان بحسب جابرييل كامبس بخصوص الحراطين وتاريخ تعميرهم للمجال الواحي؛ "الأول يرى أن الوضعية الحالية للحراطين ما هي إلا تطور طبيعي لوضع الإسترقاق الذي كانت عليه المجموعات التي استقدمت من افريقيا جنوب الصحراء في عصور مختلفة، بعضها (ربما) موغل في القدم. والثاني يرى أن حراطين الواحات يشكلون عنصرا واحدا متجانسا كان مستقرا في الواحات قبل مجيء الرحل (الجيتول أو فروع قبائل زناتية) وبأن هؤلاء الرحل تسلطوا على العنصر المستقر ووضعوه تدريجيا في وضعية اجتماعية قريبة من الاستعباد تخدم مصالحهم." (Gabriel Camps, 1970, p 35-45)، ويميل الباحث المغربي محمد أعفيف إلى الرأي الثاني في ظل غياب الدلائل المقنعة حول الرأي الأول، ويقول "من الصعب تصور هذا التطور السريع الذي حصل لقبائل رحل تستقر وتستنبط تجهيزات للري، بينما يبدو منطقيا أن مجموعات الرحل وجدت استقرارا زراعيا قائما في الواحات، فاستغلت البنية التحتية والقائمين عليها. ومن ثم استمر السكان الأصليون مرتبطين بالأرض والعمل الزراعي (وهو ما ينطبق على الحراطين) بينما يعزف الوافدون عن العمل في حراثة الأرض" (أعفيف، ص 65)، وما يزيد موقف أعفيف دعما هو أن معظم القبائل الأمازيغية كانت ترى أن خدمة الأرض "الأعمال الفلاحية" تمثل انحطاطا كما هو الحال بالنسبة لآيت مرغاد وأيت عطا، لذلك - وكما قال سبيلمان - "نادرا ما يحرث بعضهم (وحديثه عن آيت عطا بالذات) الأرض بأيديهم، حيث إن الخمّاسين أو الحراطين هم الذين يقومون بهذه الوظيفة الثانوية" (سبيلمان،2011، ص 57).

وإذا كانت كل الجماعات الإثنية بواحة فركلة قد "أوْجَدَت" لنفسها شجرة نسب تستند عليها في إثبات هويتها فإن أهم مواطن ضعف الحراطين بالواحات هو فقدانهم لشجرة نسب يستندون عليها في المواجهات التي تحدث بين المجموعات في إثبات الهوية. وبغياب شجرة نسب صار العنصر الحرطاني بدون لحمة هوياتية، فانكسرت وحدته وتشتت شمله بفعل عوامل عديدة من ضمنها الجفاف وهجمات الرحل، لذلك انتشروا في الواحات بحثا عن العمل، أو كما قال مستجوب "بحثا عن قتل الجوع"

(مقابلات ميدانية (رقم 6)، 2018) وكان ارتباط الحراطين بالأرض بالإضافة إلى عدم قدرتهم على التصدي للفئات القوية (المقاتلين) دور كبير دفعهم للعمل كخماسين أي كفلاحين بلا أرض، وهو المعطى الذي جعلهم عرضة للكثير من الاهانات.

3) واحة فركلة بوصفها مجتمعا تراتبيا

بسبب التراتبية الاجتماعية بواحة فركلة تم توزيع الإثنيات عبر الوحدات السكنية (إغْرْمْ/ الكَصْر) بشكل غير اعتباطي ويمكن التعبير عن ذلك من خلال الخريطة التوضيحية الآتية:

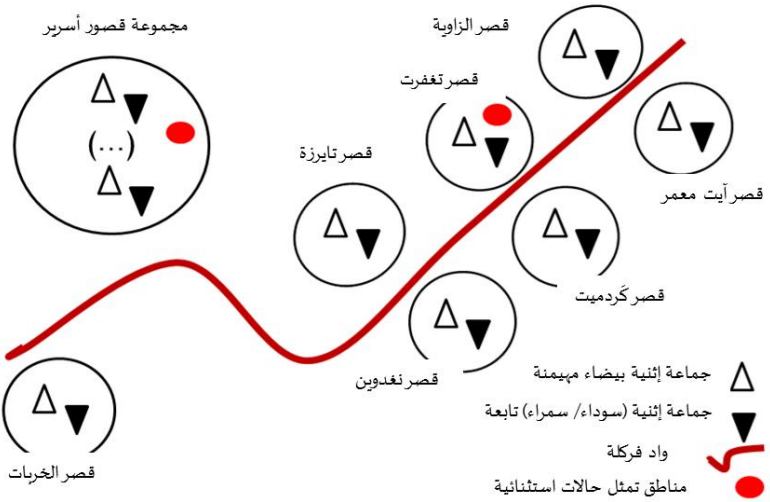

تمثل هذه الخريطة الشكل العام الذي اتخذه التوزيع الإثني داخل واحة فركلة (مصدر الخريطة: عمل شخصي).

تشير الخريطة إلى توزيع الإثنيات عبر الوحدات السكنية "إغْرْمْ/ الكَصْر" والخط الأحمر الذي يتوسط الدوائر هو عبارة عن واد فركلة الذي تحيط به القصور(وهي وحدات سكنية منغلقة محاطة بأسوار وأبراج عالية)، بينما يشير المثلث المقلوب نحو الأسفل إلى الجماعة الإثنية التابعة أي العنصر الأسمر "الحراطين"/إقبليِيْن، في حين يشير المثلث الأبيض إلى الجماعة الإثنية النافذة أو المهيمنة وتعبر عنها أربعة فئات "بيضاء" وهي: "آيت مرغاد" بقصر الخربات، "إيمازيغن" بقصر تغدوين، "الشرفاء" بقصر تايرزة، "المرابطون أو إيكْرَامْنْ " بقصر آيت معمر، أما المناطق التي وضعت فيها النقطة الحمراء فتشمل حالات خاصة بحيث أن منطقة أسْرير يمثل المجال الأكثر كثافة سكانيا بمنطقة فركلة، وتعيش فيه جميع المكونات الإثنية عدا أيت مرغاد وأيت عطا (ملاحظات ومقابلات ميدانية، 2018). أما قصر تِغْفْرْتْ فتعيش فيه إثنية واحدة وهي الفئة السمراء المعروفة بإقبليِيْن، والسبب في ذلك يعود إلى ثورة

الحراطين ضد مالكهم (مقابلات ميدانية (رقم: 2، 5، 6)، 2018)، وقد اقتصرنا في الخريطة على ذكر هذه النماذج للتوضيح فقط، مع علمنا بوجود حوالي 38 قصرا داخل فركلة، وجميعها تنتظم على مشارف الأنهار أو قرب عيون الماء. ونشير إلى أن جميع القصور التي يحتلها أيت مرغاد حاليا بفركلة احتلتها قبلهم قبائل أيت عطا إلا أن حلف يافلمان تمكن من طردهم ليصيروا خارج الواحة رسميا، ولم يعد لهم (أيت عطا) قصر ينتسبون إليه أو يحضنهم، إلا أن لهم تاريخا محفورا في الذاكرة والتراث. (مقابلات ميدانية (رقم: 35، 37)، 2018).

وإذا عدنا إلى خريطة التوزيع الإثني نلاحظ أن الحراطين أو إقبليين يحتلون جميع قصور واحة فركلة بدون استثناء، ورغم أنهم عاشوا في الماضي كفئات تابعة، إلا أنهم يمثلون الإثنية النافذة من الناحية العددية (ملاحظات ميدانية، 2018)، وقد لعبوا دورا كبيرا في دينامية المجتمع والمجال، كما لعبوا دورا رئيسا في خلخلة النظام الاجتماعي العام برمته بعد أن تغيرت أوضاعهم الاقتصادية. (مقابلات ميدانية (رقم: 68،27،23،14،12)، 2018) وكان لديناميتهم تلك دور كبير في تغير منحى العلاقات من طابعها العمودي القائم على التبعية والإكراه والإخضاع إلى طابعها الأفقي القائم على الندية والتنافس والصراع بينهم وبين "البيض"، وبذلك يصبح فضاء الواحة فضاء صراع بين هويات إثنية مختلفة يحتل لون البشرة فيه أهمية بارزة.

ويمكن التعبير عن هذه الدينامية وما طرأ عليها من تغيرات من خلال الشكل التوضيحي الآتي:

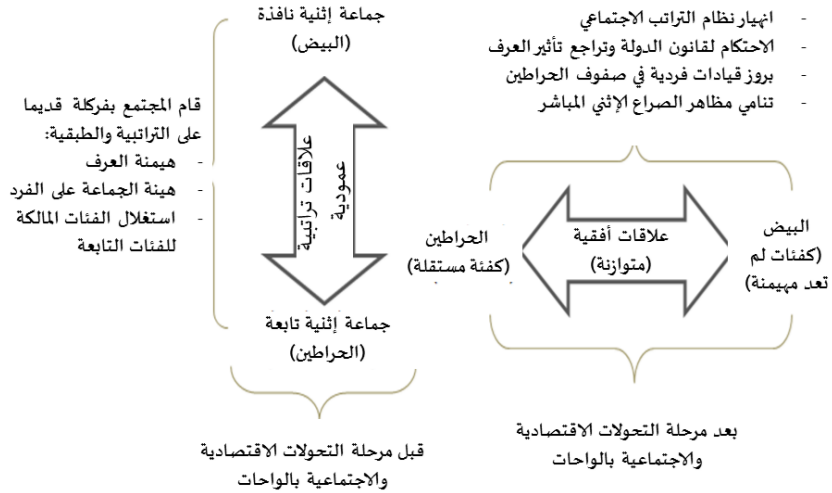

يوضح الشكل تغير منحى العلاقات الإثنية بين البيض والسود قبل التحولات الاجتماعية والاقتصادية وبعدها

وستنتج عن هذه الدينامية التي شهدها المجال الواحي بفركلة علاقات ذات طابع "حذِر" وحساسيات بالغة مكبوتة ومخبوءة بين المكونات الإثنية، حيث يميل العنصر الأسمر إلى الثأر ولو بشكل رمزي جراء ما لحقه في الماضي من استغلال وسوء المعاملة من طرف المالكين المهيمنين (البيض)، بينما يبدي "ملاك الأمس" انزعاجهم من تحولات الحراطين وتغير أحوالهم بعدما كانوا خاضعين لنفوذهم، ويعيشون تحت رحمتهم. (مقابلات ميدانية (رقم: 5، 7، 23)، 2018).

4) تأثير الانتماءات الإثنية على التنمية المحلية بالواحات

للاختلافات الإثنية تأثيرات واضحة على التنمية المحلية وتدبير المجال المشترك بالواحات (مقابلات ميدانية (رقم: 1، 2، 3، 15، 17، 24، 17، 30، 32، 40)، 2018)، إذ في ظل انتشار التقوقع وضعف التواصل البين-إثني، بالإضافة إلى وجود التنميط السلبي بين الجماعات المختلفة فإن ذلك يؤثر على العلاقات الاجتماعية بين أعضائها، لاسيما في فترات الانتخابات وأثناء تقسيم أراضي الملك الجماعي.

أ) تأثير الانتماءات الإثنية على الانتخابات الجماعية والبرلمانية

تتحول الانتخابات في المجالات الواحية عموما إلى لحظة تتقوى فيها الانقسامات القبلية والإثنية بالنظر لما يطبع أجواءها من تنافس وصراع حيث تسعى كل جماعة للدفع بمن يمثلها في تدبير الشأن المحلي، لاسيما بالنسبة لإثنية إقبليين، إذ أن أعضاء هذه الإثنية خضعوا تاريخيا لظروف قاسية تجلت في سوء التعامل اليومي معهم باعتبارهم فئة دنيا في هرمية المجتمع، ثم امتهانهم للمِهن المحتقرة (تأخْمَّاسْتْ)، (مقابلات ميدانية،(رقم: 1، 2، 4، 14، 17)، 2018) مما أضرَّ بمكانة جماعتهم الإثنية القاعدية، لذلك تشكل الانتخابات بالنسبة لإقبليين فرصة لتحقيق المساواة مع الجماعات الأخرى التي تمتعت بمكانة أعلى في الماضي.

ورغم كون الإقبليين جماعة نافذة من الناحية العددية إلا أنها لم تكن ممثلة في الجماعات القروية والحضرية، كما أنها لم تكن تساهم في تدبير أمور القبيلة،(مقابلات ميدانية، (رقم: 1، 2، 5، 8)، 2018) ومرد ذلك راجع أولا لغياب رابط هوياتي يُقوي وجود أعضائها ويدعم وحدة صفوفهم، فهم متفرقون بين القصور والقرى والواحات، كما يرجع السبب ثانيا إلى تبعيتهم السياسية إلى جانب تبعيتهم الاقتصادية واللغوية، وتمثل المشاركة "السياسية" الضعيفة للإقبليين في تدبير شؤونهم المحلية داخل الواحات هاجسا أثقل كاهلهم لذلك كانوا في حاجة إلى ممثلين عن إثنيتهم كتعبير عن التحولات الاجتماعية التي يشهدها المجال الواحي منذ إعلان الاستقلال السياسي للمغرب سنة 1956 (ملاحظات ومقابلات ميدانية، 2018).

ونتيجة لحساسية الوضع الإثني (المتوتر) بالواحات فقد تمكن بعض المترشحون الإقبليين من اقتحام فضاء الممارسة الحزبية واستغلال لون بشرتهم السمراء كاستراتيجية لبناء هوية اجتماعية

تمتلك قوة التمثيل في تدبير الشأن المحلي (مقابلات ميدانية (رقم: 1،3،16،19)، 2018). وسنعود بتحليل هذا الوضع إلى مرحلة السبعينات من القرن الماضي بواحة فركلة التي شهدت إعلان السيد علي هروان من قصر الخربات ترشحه للانتخابات، فشكل إعلانه ذاك وقتها حدثا استثنائيا بالمنطقة برمتها، على اعتبار أن الرجل يمثل أول أقْبْلِيِ/"حرطاني" يتقدم للانتخابات بالمنطقة. (مقابلات ميدانية،(رقم: 1،6،3)، 2018)، ورغم محاولة أعضاء من قبيلة "آيت مرغاد" الوقوف في وجهه والتصدي لطموحاته وإبعاده عن المشهد الانتخابي إلا أن علي هروان استمر في معركته الحزبية فتمكن في النهاية من كسب الانتخابات مستفيدا من الهيمنة العددية للاقبليين الذين دعموه ووقفوا بجانبه وهللوا له (مقابلات ميدانية (رقم: 1،6، 3)، 2018). وقد كان نجاح علي هروان في الانتخابات بمثابة انتصار رمزي لكل الإقبليين بالمنطقة بالنظر لارتفاع وتيرة التنافس والصراع لاسيما بينهم وبين آيت مرغاد. وأما لون البشرة "السمراء" (تَافْطّانْتْ) فعُدّت بمثابة الأساس لبناء هوية جماعية للإقبليين (مقابلات ميدانية (رقم: 1،6، 8، 9، 13)، 2018). وتؤكد حالة علي هروان على كون الانتخابات في المجالات الواحية قامت على أساس إثني، حيث الانتماءات الإثنية والقبلية تتحول إلى ورقة انتخابية "رابحة" يحاول كل مترشح استغلالها لصالحه.

ومنذ أن قُسّمت فركلة إلى دوائر انتخابية (فركلة السفلى والعليا ثم الجماعة الحضرية تنجداد) فقد كان الإقبليين يهيمنون على رئاسة فركلة العليا بالنظر لهيمنتهم العددية بها (مقابلات ميدانية (رقم: 1،2، 3، 5، 7)، 2018) ، حيث أن أكثر من نصف سكان واحة فركلة متمركزون بالمنطقة العليا، وكان المترشحون الإقبليين يستغلون "الجِلدة السمراء" (تَافْطّانتْ) لصالحهم كلما دنا موعد الانتخابات، (مقابلات ميدانية (رقم: 1، 2، 3، 6)، 2018)، واستمرت تمثيلية الحراطين "القوية" للجماعات المحلية منذ ذلك الوقت إلى الوقت الراهن بفعل هيمنتهم العددية واستمرارية الحضور القوي للخلفيات الإثنية في الفترات الانتخابية (مقابلات ميدانية (رقم:1،2 3، 5، 7)، 2018).

ويقدم الشكل الآتي تحليلا للسلوك الانتخابي للمترشحين الحراطين قبل تمثيليتهم الحزبية وبعدها بواحة فركلة:

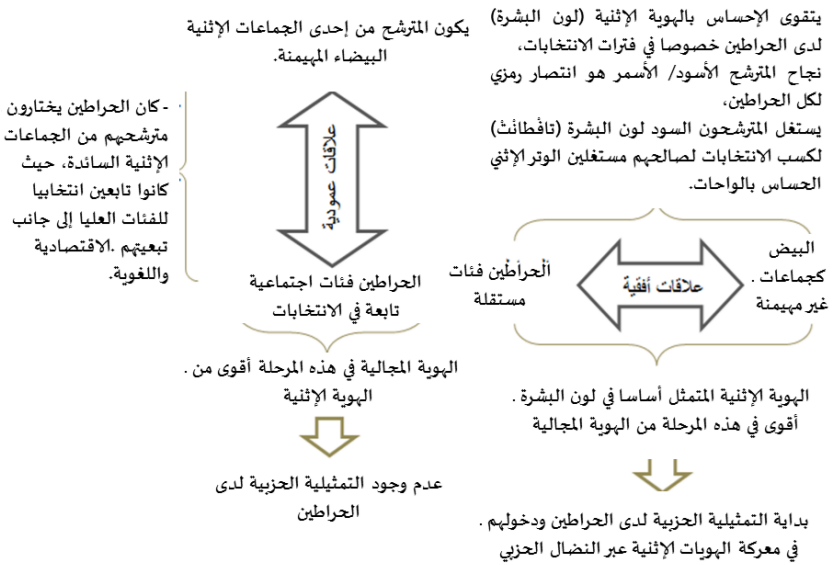

تحليل السلوك الانتخابي للحراطين قبل تمثيليتهم الحزبية وبعدها. مصدر الخطاطة: عمل شخصي

لقد كانت الانتخابات في الواحات تتأثر بالانتماءات الإثنية والقبلية لاسيما بين الفئات الإثنية النافذة (ملاك الأراضي) والتابعة (الحراطين)، وهو المعطى الذي انعكس سلبا على تدبير المجال الواحي وتنميته، حيث يعيش المجال الواحي في الوقت الراهن وضعا مندثرا على كافة الأصعدة والمجالات والسبب يعود إلى استمرارية اشتغال الفكر القبلي الذي يستند إلى الانتماءات الإثنية الضيقة وصراع الخلفيات القبلية، مما يُفرغ الممارسة الحزبية من مضمونها التدبيري ومن رهاناتها التنموية، وتصبح مجرد صورة للوضع الإثني المتوتر من الداخل داخل الواحات.

ب) تأثير الانتماءات الإثنية في تدبير الأراضي الجماعية

تعتبر الأرض أهم العناصر التي تسمح لنا بفهم التجاذبات التي تتحكم في العلاقات الإثنية بالواحات، وحيث "أن امتلاك الأرض يتبع امتلاك الماء" بتعبير جونيفيان بيدوشا، (Bedoucha, 1987, p 77) فإن مشكلة الحراطين الكبيرة تجلت في عدم امتلاكهم لهذين العنصرين المهمين داخل الواحات، مما جعلهم في موقع الدونية الاقتصادية والاجتماعية (ملاحظات ومقابلات ميدانية (رقم: 3، 17، 20)، 2018).

من بين النماذج التي تؤكد ما للأرض والماء من قدرة على خلق الصراع أو فرض النظام حالة قرية إحندار بواحة فركلة، حيث بدأ الصراع بين الحراطين وأيت مرغاد بسبب سوء تدبير مشكل الماء فانتهى

الأمر بنشوب معركة خلفت جرحى بين الطرفين. (مقابلات ميدانية (رقم: 25،19، 29، 39)، 2018)، وهو ما يعني ان الصراع لا يزال قائما رغم موجة التحديث الذي مس بنية المجتمع الواحي الفركلي. ومن النماذج المعاصرة أيضا للقصور التي تشهد توترا اثنيا في الوقت الراهن، قصر الخُرْبَاتْ، بين الحراطين وآيت مرغاد، بسبب مشاكل معقدة بخصوص تقسيم تراب القبيلة (أراضي الجموع). ومن انعكاسات هذه الصراعات وجود علاقات بين- إثنية "سلبية" في هذا المجال. وتمييز إثني يُقام بين البيض المتمثلين في آيت مرغاد والسُّمر أو إقبليينْ، (ملاحظات ومقابلات ميدانية، 2018) ولعل من أخطر نتائجه جدل اصباغ صور جامدة ومتصلبة من الصور النمطية بين المكونين (البيض والسود). أما حالة قصر أسرير فسنورد المشكل الذي طرح عندما حاولت إثنية من الأحرار وحراطينهم ب"قصر أيت بوحدو" تقسيم أراضيهم المشتركة، حيث أثار اختلاف معيار القسمة خلافا بين المكونين، إلا أنه انتهى بالوصول في النهاية إلى حل ودّي قوامه تقسيم نصف الأرض بالمعيار الذي اقترحه (الإقبليين) والنصف الآخر بالمعيار الذي حدده "إيمازيغن" مخافة تدخل المخزن لما قد ينجم عن ذلك من تبعات سلبية على الأطراف المتنازعة (مقابلات ميدانية (رقم: 9، 16، 23)، 2018).

5) خلاصات:

من الصعب فهم طبيعة العلاقات الإثنية في المجالات الواحية بالجنوب الشرقي المغربي وما تنضوي عليه من تعقيدات بدون العودة إلى التاريخ، فوحده (التاريخ) من يعيننا على فهم ما يجري اليوم من استراتيجيات الصراع والتنافس بين الأفراد والجماعات داخل التنظيمات الحزبية وخارجها وبالعودة إلى التاريخ يمكن أن نفهم ماضي الذهنيات ومعها أسباب التباعد والتنافر أو التقارب والاندماج بين هذه العناصر أو تلك.

لقد أدى انهيار نظام التراتب الاجتماعي الموروث إلى زعزعة النظام الاجتماعي العام برمته بالواحات المغربية، حيث قُلبت الأوضاع الاجتماعية وتغيرت مناحي العلائق بين الجماعات الإثنية النافذة والتابعة، كما خُلق مناخ ثقافي مشحون بقيم الصراع والتنافس والتعصب بين الأفراد والجماعات الإثنية، وحيث أن كل فرد هو عضو ينتمي إلى جماعة لها هويتها ومكانتها التاريخية "الموروثة" فهذا ما دفع الحراطين إلى اتباع استراتيجيات شتّى بغرض تغيير صورة جماعتهم المرجعية وقد شكلت الأحزاب السياسية أحد الحلول العملية الناجعة لذلك لما فتحته من آفاق وفرص أمام العنصر الهامشي (الحرطاني) للارتقاء والانعتاق. وبذلك صار للحراطين رؤساء وممثلون في الجماعات الترابية وصاروا يحتكرون المقاعد ويتبادلون كراسي السلطة بعدما منعتهم الأعراف القبلية - قبل عهد قريب - من المشاركة في تدبير أبسط شؤون القبيلة، وهذه التحولات خلقت بالفعل مناخا ثقافيا مشحونا ويحتاج فهمه المزيد من الابحاث والدراسات.

أما النزاعات الدائرة على الأراضي الجماعية (الاراضي المشتركة) فتتخذ طابعا إثنيا وقبليا وتهيمن عليه "القيم العنصرية" وبسبب هذا الوضع صارت الأرض رأسمالا مشلولا ومصدرا للكثير من القلاقل والمشكلات مما يؤدي إلى عرقلة الجهود الساعية إلى الاستفادة منها في التنمية والاستثمار.

ونوصي - عبر هذه الدراسة- بأهمية التواصل بين الأفراد والجماعات من أجل خلق نسيج جمعوي قوامه المصلحة العامة لا المصالح الفئوية الضيقة، فالمجتمع الواحي يئن تحت أوجاع مشاكل اجتماعية كثيرة والأولوية تفرض التفكير في التنمية وجلب المنافع ودفع الأضرار والتخلص من كل صراع غير مجدٍ سواء للإنسان الواحي أو لمجاله المندثر ، كما نوصي بقراءة التاريخ بنقد وتمحيص والخروج بدروس وعبر حكيمة منه، فالانتصار للمبدأ الإثني هو واقع مرير أضر بالإنسان وعرقل تدبير المجال بالواحات المغربية، ولا فائدة ترجى من التمسك بالقيم القبلية والإثنية التي لا خير يأتي منها، بل لابد من التفكير الواعي والمسؤول في مصلحة المجال المشترك (الواحة) عبر تنميته وتدبيره بحكمة.

قائمة المراجع

الكتب:

1- حركات إبراهيم، (2000م) المغرب عبر التاريخ، (ط.1)، دار الرشاد الحديثة.
2- مهدان امحمد ، (2012م) الماء والتنظيم الاجتماعي – دراسة سيوسيولوجية لأشكال التدبير الاجتماعي للسقي بواحة تودغى، (ط.1)، جامعة ابن زهر أكادير.
3- سبيلمان جورج (ترجمة محمد احدى)(2011م)، أيت عطا الصحراء وتهدئة درعة العليا، (ط 2) ، كلية الآداب، جامعة ابن زهر، أكادير.
4- روس.إ.دان، (ترجمة: أحمد بوحسن، ومراجعة عبد الأحد السبتي) (2006م) المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي، المواجهة المغربية للإمبريالية الفرنسية، (ط.1)، الرباط، منشورات الزاوية.
5- السوسي المختار (1960م)، المعسول، (ج 16) الدار البيضاء مطبعة النجاح .
6- دحمان محمد (2006م)، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، الرباط، مطبعة كوثر.
7- القسطاني بن محمد،(2005م) الواحات المغربية قبل الاستعمار، واحة غريس نموذجا (ط.1)، الرباط، مكتبة المعارف الجديدة.

المؤتمرات والندوات والملتقيات:

8- الساعيدي، سمير. أيام 1.2-3 نوفمبر 2019، الحراطين في المتخيل الاجتماعي بواحة فركلة مقاربة أنثروبولوجية، قدم إلى المؤتمر الدولي للعلوم الاجتماعية والانسانية قضايا معاصرة التكامل اساس المعرفة، المركز الديمقراطي العربي ألمانيا – برلين.

رسائل الماجستير والدكتوراه:

- اخروش الحسن (2002م/2003م) المجتمع القبلي ودور الزوايا بالحوض الأعلى والأوسط لوادي غريس من القرن 8هـ/14 م إلى القرن 13 هـ/ 19 م"، أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي محمد بن عبدالله كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز – فاس. (لم تنشر)
- الجويلي محمد، (2000م/2001م)، سود الواحات دراسة سوسيوأنثروبولوجية في استراتيجية المعنى"، أطروحة دكتوراه، جامعة تونس، كلية الآداب والعلوم الانسانية،

مواقع الانترنت:

- الديالمي، عبد الصمد (12 فبراير 2009) الجدران اللامرئية للعنصرية ضد السود في المغرب، تم استرجاعها في (15 يناير 2018) من الموقع الإلكتروني www.Alawan.org

مراجع باللغات الأجنبية

- Camps Gabriel, (1970), *Recherches sur les origines des cultivateurs noirs du Sahara* ROMM, no, 7.
- Foucauld (Charles de), (1939), *Reconnaissance au Maroc* (paris).
- Munie Jacques,(1958) *hiérarchie social au Maroc présaharien* (3éme et 4éme trim), hesperis, paris librarie larose.
- Royaume de Maroc Ministre de l'intérieur(2015), La région de Draa Tafilalet, monographie Générale .